٥٢ القرطبى
صاحب كتاب جامع أحكام القرآن

التطور والاتساع فى انتشار كتاب الله الكريم، لابد أن يواكبه جهد متزايد فى مجال تيسير فهم معانى وأهداف هذا الكتاب، لجمهور المسلمين وعامتهم، فضلا عن خاصتهم، وذلك لمساعدتهم على حُسْن تدبر معانيه وإدراك أهدافه، ومن ثم تلاوته حق التلاوة.

لقد وصف حجةُ الإسلام الإمام أبو حامد الغزالى شروطَ هذه التلاوة الحقة فقال: «تلاوة يشترك فيها اللسان، والعقل والقلب.. فحظ اللسان من هذه التلاوة تصحيح الحروف بالترتيل، وحفظ العقل منها تدبُّر المعانى، وحظ القلب الاتعاظ بما فى هذا الكتاب الكريم من زجر وأمر ونهى.. فاللسان يرتل، والعقل يتدبر، والقلب يتعظ..».

ومن هنا أصبح على المسلمين فى كل مكان وزمان أن يكثروا من تلاوة آيات هذا الكتاب الكريم ويتدبروا معانيه، ويفسروها للناس، حتى يدرك قرَّاؤُهُ، ومرتلوه، والآخذون بأحكامه معانيه وأهدافه، ومراميه ومقاصده.

ومن بين هؤلاء الذين أخذوا على عاتقهم مهمة تفسير أحكام القرآن الكريم فى العصر الوسيط أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى، صاحب «تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن الكريم..».

والحق أن المؤرخين لا يعرفون تأريخاً محدداً لميلاد هذا العلامة المفسِّر، وإن كانت الآراء قد أجمعت على أنه ولد فى قرطبة - إحدى مدن الأندلس - ما بين عام ٥٨٠ هـ إلى ٥٩٥ هـ، إلا أنهم حددوا تأريخاً لوفاته بمنية ابن خصيب «مدينة

المنيا الآن بالوجه القبلى فى مصر» كما يقرر الزركلى فى كتابه «الأعلام» بأنه رحل من قرطبة بالأندلس إلى بلاد المشرق فى عصر ملوك الطوائف، واستقر بمنية ابن خصيب إلى أن توفى ليلة الإثنين التاسع من شوال عام ٦٧١ هـ الموافق عام ١٢٧٣ ميلادية، ودُفن فى هذه المنطقة من صعيد مصر.

ويتفق مع كتاب «الأعلام» للزركلى، كتاب نفح الطيب للمقرى فى جزئه الثانى الخاص بالتعريف بمن رحل عن بلاد الأندلس إلى بلاد المشرق، ومنهم القرطبى رضى الله عنه.

ويرى كل من ابن فرحون فى «الديباج المذهب فى معرفة أعلام المذهب ـ أى مذهب مالك ـ»، والمقرى فى كتابه «نفح الطيب» أن القرطبى كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين، الورعين الزاهدين فى الدنيا، المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة، أوقاته معمورة ما بين توجه، وعبادة، وتصنيف».

ومن أبرز مؤلفاته «تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن الكريم».

وهو كتاب كبير يحتوى على عدة مجلدات، بعض المؤرخين يذكرون أنها خمسة عشر، وآخرهم الأستاذ توفيق الحكيم الذى أعد كتاباً تحت عنوان «مختارات من تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن» ذكر أنها عشرون مجلداً، وهذا التفسير الذى قام به القرطبى يُعَدُّ من أجلِّ التفاسير وأعظمها نفعًا، أسقط منه القصص والتواريخ، أثبت بدلها أحكام القرآن، واستنبط أدلته، وذكر القراءات، والإعراب، والناسخ والمنسوخ، وغيرها وسوف نعود إلى منهجه فى هذا الكتاب وموضوعاته. بعد أن نذكر بقية كتب ومؤلفات هذا العلامة الكبير، ومنها كتاب «الأَسْنَى فى شرح أسماء الله الحسنى» وكتاب «التذكرة بأمور الآخرة» وكتاب «شرح التقصى» وكتاب «قمع الحرص بالزهد والقناعة، ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة». والذى قال عنه ابن فرحون بأنه لم يقف على تأليف كتاب أحسن منه فى بابه وموضوعه، وله أرجوزة جمع فيها أسماء النبى ﷺ، وله تواليف وتعاليق مفيدة.

ومن سمات هذا المفسر الكبير أنه كان مطرحاً للتكلف، فلا يتصنع ولا يتكلف فى أمر من الأمور، وإنما كان رجلا بسيطاً متواضعا يمشى بين الناس كما تذكر الروايات التاريخية: «بثوب واحد، وعلى رأسه طاقيته» لا يغيرهما قط إلا لغرض النظافة، أو عندما تبليان.

وعن كتابه «الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآى الفرقان» يقول فى تقدمته إنه: «الفارق بين الشك واليقين، الذى أعجزت الفصحاء معارضته، وأعيت الأولياء مناقضته، وأخرست البلغاء مُشاكَلَته، فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.. جعل أمثال عبراً لمن تدبرها. وأوامره هدًى لمن استبصرها، وشرح فيه واجبات الأحكام، وفرق فيه بين الحلال والحرام، وكرر فيه المواعظ والقصص للأفهام، وضرب فيه الأمثال، وقص فيه غيب الأخبار فقال تعالى: ﴿ مَّافَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾[1] خاطب به أولياءه ففهموا، وبين لهم فيه مراده فعلموا..».

ومن تفسيره للقرآن يقول القرطبى: «رأيت أن أشتغل به مدى عمرى؛ وأستفرغ فيه منّتى، بأن أكتب فيه تعليقاً وجيزاً، يتضمن من التفسير واللغات، والإعراب والقراءات، والرَّد على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهده لما تذكره من الأحكام ونزول الآيات، جامعاً بين معانيهما، ومبينًا ما أشكل منهما بأقاويل السلف، ومن تبعَهُم من الخَلَف، وعملته تذكرة لنفسى، وذخيرة ليوم رَمْسِى، وعملاً صالحا بعد موتى..».

ويسجل فى منهجه لهذا التفسير العظيم شرطاً مهما هو إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث إلى مصنفيها، حيث يقول: «من بركة العلم أن يُضاف القول إلى قائله» حيث يجئ الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهما، لايعرف من أخرجه إلاَّ منْ اطلع على كتب الحديث، فيبقى من لا خبرة له بذلك حائرًا، لا يعرف الصحيح من السقيم، ومعرفة ذلك علمٌ جسيم، فلا يقبل منه الاحتجاج به، ولا الاستدلال حتى يضيفه إلى مَنْ خرّجّه من الأئمة الأعلام، والثقات المشاهير من علماء الإسلام، ونحن نشير إلى جمل من ذلك... وأُضْرِبُ عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين، إلاَّ ما لابد منه ولا غنى عنه للتبيين والتوضيح. فضمنتُ كل آية تتضمن حكماً أو حكمين مسائل يتبيَّن فيها ما تحتوى عليه من أسباب النزول، والتفسير الغريب والحكم. فإن لم تتضمن حكماً ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل.

وهكذا كان منهجه ـ رضى الله عنه ـ فى التفسير الذى أنفق فيه سنوات من عمره حتى توفى فى منية ابن خصيب «مدينة المنيا الآن» وله فيها مقام يُعرف باسمه.

* * *

(١) سورة الأنعام ـ من الآية ٣٨.